بداية التشيع

<"xml encoding="UTF-8?>

يختلف العلماء حول بداية و ظهور التشيّع، فقد قالوا: إنّه بدأ وفاة النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) و ما رافق ذلک من حوادث حول شخص الخليفة الذي سيحل محل النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في إدارة البلاد.

وتشير الحوادث التاريخية في تلک الفترة الي وجود ثلاثة فصائل رئيسية كانت لها مواقف مصيرية حول هذه المسألة الخطيرة.

فهناك الأنصار الذين اعتبروا الخلافة حقاً طبيعياً لهم لإنّهم نصروا النبيّ وقاتلوا من أجله.

وهناك المهاجرون الذين ادّعوا بإنّهم شجرة النبي و أصله و إنّهم أوّلى بهذا الميراث من غيرهم، و قد سجّل التاريخ و قائع ما احتدم من جدل حول ذلک في السقيفة.

وهناك بنو هاشم و هم يمثّلون الفصيل الثالث الذي كان له رأيه و حجّته حول خلافة النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) و في رأيهم أن علي بن أبي طالب هو المؤهل الوحيد لهذا المنصب، و لا يقف بنو هاشم وحدهم بل التف حولهم وحول علي بالذات جمع من الصحابة الأجلّاء؛ كان في طليعتهم: سلمان الفارسي و أبوذر الغفاري و المقداد و عمّار بن ياسر و البراء بن عازب و آخرون.

وقد امتنع هؤلاء عن بيعة أبي بكر و وقفوا الي جانب علي في محنته تلک، ومن هنا كانت بذرة التشيّع و ظهور فريق إسلامي يساند عليّا.

ولقد تخلف عن بيعة أبي بكر جمع من المهاجرين و الأنصار و كان هواهم مع علي بن أبي طالب؛منهم: العباس بن عبد المطلب و الفضل بن عباس و الزبيربن العوام و خالدبن سعيد و المقداد و سلمان الفارسي و أبوذر الغفاري و عماربن ياسر والبراء بن عازب و ابي بن كعب1.

وقال بعضهم: ان التشيّع انما ظهر في أواخر خلافة عثمان، و با لتحديد في الفترة التي ظهرت سياسته في توزيع

الثروات و تقريبه بني امية و تسلّطهم علي شؤون البلاد و رقاب العباد، فقد نجم عن سياسته التعسفية تلك تململ، و أبدي كثيرون اعتراضهم و غضبهم جرّاء ذلک، و وقفوا في تلک الفترة الي جانب علي، وبدأوا بحركة دعائية واسعة في مختلف المدن و الحواضر الإسلامية، و كان عبدالله بن سبأ أحد الناشطين فيها، و ان تلک الحقّبة من الزمن قد شهدت ميلاد التشيّع.

ويقول آخرون: إن التشيّع بدأ مع تسنم علي (عليه السلام) منصب الخلافة.

وفي رأي ابن النديم: إن التشيع ظهر إبّان حركة طلحة و الزبير بعد نكثهما البيعة و اشتعال حرب الجمل بذريعة الطلب بدم عثمان، حيث أطلق علي الذين وقفوا الي جانب عليّ (عليه السلام) اسم الشيعة2.

ويري البعض أن ظهور التشيع ككيان فكري، كان بعد حرب صفين وحدوث أخطر انشقاق في جيش الإمام علي (عليه السلام) والذي حمل اسم الخوارج، الذين اعلنوا آراءهم قبل مسألة التحكيم و بعدها، و تمادوا في عصيإنهم للشرعية بتكفيرهم الإمام، و قالوا بكفركل من يحكم في أمر الله متخذين من الآية الكريمة غطاءً لحركتهم "ان الحكم إلا لله " و إنّه لاضرورة للخلافة و لا للإمامة، و ل اأن يكون الخليفة أو الإمام قرشيّاً ً بالضرورة.

وفي مقابل هذه الآراء المتهوّرة أبدي أنصار الإمام عقائد مناهضة و أعلنوا عصمة الإمام، و أن الإمامة ضرورة دينية، و أن سيّدنامحّمداً ً(صلى الله عليه و آله وسلم) نصب عليّاً للأمامة و الخلافة، و قالوا إن الامام لابد و ان يكون من قريش ومن بني هاشم، و هذه أوّلي بذور التشيّع.

فيما ينادي آخرون: بأنّ التشيع ظهر بعد مذبحة كربلاء ومصرع الإمام الحسين و أنصاره و أهل بيته علي شواطئ الفرات. فلم يخطر علي بال المسلمين قبلها أن يصل جهاز الخلافة في إنحرافه حداً ً يجنح فيه الي قتل سبط الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) علي ذلک النحو الفجيع، و أسر بنات محّمد (صلى الله عليه و آله و سلم) و اقتيادهن سبايا.

وفي تلک اللحظة الدامية أدرک المسلمون أن الملک عقيم و كان لتلک الحادثة الرهيبة الأثر العميق في انبعاث الضمير الإسلامي في أعماقهم، و تغلغل حب أهل البيت في نفوسهم و آمنوا أن الخلافة و الإمامة حق مشروع لأهل البيت دون غيرهم. وخلاصة القول ان الدم الحسيني الطاهر و دماء أهل بيته و أنصاره هو المؤسس للتشيع في التاريخ.

وهناک من يقول ان التشيع ظهرفي زمن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث ظهرت فرقة الإمامية و تبلورت عقائدها و آراؤها الفقهية، و أصبح لها كيان خاص يميّزها عن سائر المسلمين.

وفي مقابل كلّ ذلک، هناک من يري أن التشيع ظهرفي زمن النبي(صلى الله عليه و آله و سلم) و نشأ علي يديه.

ويقولون ان الشيعة أوّلي الفرق الإسلامية و كانت تشايع عليّا منذ زمن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) و تعتقد بإمامته، و كان من بينهم صحابة أجلّاء كالمقداد و سلمان و أبي ذر و عمار، و الشيعة اصطلاح قرآني، فقد كان لنوح شيعته و لأبراهيم و موسي و عيسي3. وان كلمة (شيعة) ظهرت في زمن النبي واطلقت علي اتباع علي بن أبي طالب (عليه السلام) كسلمان و أبي ذر و المقداد و عمار4.

هذا استعراض سريع لآراء المؤرخين و العلماء حول بدء التشيع و لايسعن هنا تفصيل ذلک في تحليل حوادث التاريخ، و ما يمكن مناقشته هنا هو ما يرتبط ببحوث الكتاب: إن مسألة ظهور التشيّع يمكن بحثها في إطارين؛ الأوّل: ان الشيعة تعني اقتفاء آثار علي (عليه السلام) والبحث في بداياته الأوّلي و متي أصبح علي مثالاً يحتذي به؟

والثاني: بحث التشيّع ككيان اجتماعي يؤمن بخلافة علي ايماناً قاطعاً، وبعبارة آخري إن الشيعة إصلاح يطلق علي من يعتقد بخلافة علي(عليه السلام)وامامته، و يعدّ ذلک جزءاً من عقائده الخاصة.

وفي بحث المحور الأوّل ينبغي القول بأن بدء التشيع و ظهور الشيعة كان في عهد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)؛ذلک أن هناک ارتباطاً وثيقاً بين اصطلاحي (الإمامة) و (التشيّع)؛ فالامام يعني(القائد)، و الشيعة يعني (الاتباع (، وفي ضوء الأحاديث التي ذكرت آنفاً كان علي (عليه السلام)إماماً فهذا يعني وجود مأمومين.

وهناک حشد من الأحاديث التي تزخر بها كتب السنة و الشيعة تفيد بأن لفظ الشيعة انّما أطلقه النبيّ (صلى الله عليه و آله و سلم)علي أتباع علي (عليه السلام).

فعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ 5 قال النبي(صلى الله عليه و آله و سلم) (لعليّ): هم أنت و شيعتك. تأتي أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين و يأتي عدوّكم غضباناً مقحمين "6.

وعن حابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنّا عند النبي (صلى الله عليه و آله وسلم) فأقبل علي أبي طالب (عليه السلام)، فقال: قد أتاكم أخي؛ثم التفت الي الكعبة فضربها بيده، ثم قال: "والذي نفسي بيده إن هذا و شيعته هم الفائزون يوم القيامة"7.

وقال علي (عليه السلام): سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات أوّلئک هم خير البرية. ثم التفت إليّ وقال أنت يا علي و شيعتک.و ميعادک و ميعادهم الحوض.تأتون غرّاً محجّلين"7.

وغير ذلک من الأحاديث التي تشير الي وجود طائفة من الصحابة كانوا يحبون علياً (عليه السلام) و يتولّونه و يعدّونه إماماً لهم يقتدون به.

ان أقلّ مطالعة في كتب التاريخ التي تنأوّلت حقبة صدر الإسلام تكشف بشكل جلي عن وجود فريق من الصحابة كانوا يوالون عليّاً (عليه السلام)، ويحبّونه، و لم يكن ذلک عن تعصّب فارغ بل عن روية و تعمق لما رأوه من وفاء علي و إخلاصه و تقواه لله و رسوله، و قد سمّاهم رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) شيعةً لعلي (عليه السلام)، و لا يمكن تأويل الأحاديث التي كانت تبشّر علياً و شيعته بإنها نوع من الإخبار عن المستقبل.

ولاينبغي أن يفسّر كلامنا هذا عن وجود التشيّع في زمن النبي، بوجود فرقة متميزة مستقلة عن سائر المسلمين.

فالمسلمون في زمن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) كانوا كتلة واحدة و لم يكن هناک وجود حزبي أو فئوي، و

قصاري ما يمكن قوله: ان هناک من بين صحابة البني (صلى الله عليه و آله و سلم) فريقاً كانوا يكنّون لعليّ (عليه السلام) حبّاً عميقاً و يعدّونه مثالاً يقتدي به، لإنّه كان يجسّد الدين الذي معتقدون به، وعلي هو ربيب صاحب الرسالة و رسول السماء.

أما بحث التشيّع في المحور الثاني، فيمكن القول: ان ظهور الشيعة ككيان سياسي ظهر عقب وفاة النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) و موقف فريق من الصحابة و بني هاشم في تأييدهم لحق علي و رفضهم بيعة أبي بكر.

ومن نافلة القول ان الشيعة كوجود سياسي و احصائي كان يتراوح قوّه وضعفاً متأثّراً بالحوادث.

فلم يكن عددهم بعد وفاة النبي سوي أفراد يعدّون بالأصابع، ثم تنامي عددهم بعد ممارسات الخلفاء و سياستهم، خاصّة في عهد عثمان الذي انتهج سياسة مالية كلّها استئثار لأموال المسلمين و تسليط بني امية علي مقدرات المسلمين، مما أوجد ردود فعل عنيفة دفعت بالكثير الي الاتجاه صوب عليّ الذي ظلّ يمثّل في رأيهم امتداداً للرسول الكريم (صلى الله عليه و آله و سلم). و قد تصاعدت و تيرة الحوادث حتي وصلت الذورة بمصرع عثمان واتجاه الجماهير نحو علي و مبايعته.

و يمكن اعتبار فترة خلافة الإمام علي بمثابة فترة تمحيص كشفت عن نوايا الكثيرممّن وقفوا الي جانب علي لمصالح شخصية، و لما اكتشفوا ان الامام من النوع الذي لايساوم أحداً علي دينه تمرّدوا عليه و أثاروا فتناً داخلية أدّت الي ثلاثة حروب: هي: الجمل و صفين و النهروان.

وتأتي فاجعة كربّلاء بكلّ مأساويتها لتبلور الوجود الشيعي و تجذره سياسياً وفكرياً و عقائديا.

ولقد كشفت "كربلاء" و بكلّ سافر مظلّومية أهل البيت و انحرافات الخلافة الخطيرة ثم ميلاد الضمير الشيعي الذي يمثّل الخط الإسلامي الأصيل.

ثم يأتي عهد الإمام الصادق (عليه السلام) حيث نشهد في عصره ظهور التشيّع بمظهر الفرقة الإمامية كإحدي الفرق الإسلامية التي تنهض علي قاعدة فكرية و عقائدية و فقهية لها ملامحمها الخاصة.

و إذن يمكن القول إن بذره التشيّع بدأت في زمن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) ثم نمت و ترعرعت خلال الحوادث التاريخية المتعاقبة؛ليكون للتشيع كيان يحمل ملامحه الخاصة به.

إثارة
من اللافت للنظر تاريخياً ان الجدل الذي احتدم في السقيفة بعد و وفاة النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) حول من يتولّى إدارة البلاد لم يتضمن أيّة استفاده من مصطلح (الامام) و (الامامة) و إنما دارالحديث حول شخص الخليفة فقط و ولي الأمر، فلم يقل الأنصار مثلاً ان الإمامة فينا كما لم يقل المهاجرون إن الامامة ضرورة إسلامية و نحن أوّلي بها من غيرنا.

فهل حدث ذلک مصادفة أوّلعلّة ما؟ هل كانت للإمامة شروطها التي لم تتوفرفيهم ؟ أم ان الإمامة كانت تتجسد في شخص واحد هو علي بن أبي طالب، و لم يكن بالإمكان منازعته في ذلک؟

وفي كلّ الأحوال فإن ما دار في السقيفة من جدل و ما أسفر عنها من حوادث و نتائج، كانت حول الرئاسة و الحكم و من سيخلف النبي في الحكم؟ فيما تمّ إغفال مسألة الإمامة بشكل نهائي.

ولكننا نجد و بعد أن تعاقب الخلفاء علي الحكم نجد موضوع الإمامة يطرح شيئاً فشيئا. حتي وصل الأمر ان نجد أفراداً مثل معاوية يتحدّث عن نفسه كإمام.

ولقد ذكّر الأمام علي في احدي رسائله معاوية بإنّه من الطلقاء الذين لا يصلحون للخلافة:

"واعلم يا معاوية انّک من الطلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة و لا تعقد معهم الامامة و لا تعرض فيهم الشوري"8.

ومن اللافت للنظرأيضاً أننا نجد كتب التاريخ تتحدث عن الخلافة و الخلفاء سواء الراشدين منهم أو خلفاء بني امية أو بني العباس؛ في الوقت الذي نجد فيه إغفالاً للإمامة و الإمام، فلم يستخدم هذا الاصطلاح إلا في نطاق ضيّق، بينما نجد مسألة الامامة تتصدر البحوث الكلّامية، إذ نجد الشيعة يطلقون علي عليّ (عليه السلام) وقادتهم من أوّلاده مصطلح الأئمة، و لم يكونوا يستخدمون مصطلح الخليفة إلّا في ما يخص علي و علي نطاق ضيّق فقط؛ وحين يكون الحديث عن الخلفاء الذين سبقوه.

و في مقابل هذا نجد اهتمام السنة منصباً علي مسألة الحكم و خلافة النبي في الحكم و الإدارة، اما الإمامة فلم تحظ باهتمام يذكر.

وبينما نجد الشيعة يتحدثون عن فضائل و كمالات شخص الإمام و مدي ضرورتها عقائدياً و إنّه المؤهل الوحيد لخلافة النبي في القيادة، نجد صمتاً مطبقاً في الجانب السنّي عن ذلک. وبذلک سجّل الشيعة تقدّما في هذا الموضوع.

فقد ذكر ابن النديم ان علي بن اسماعيل بن ميثم التمار هو أوّل من ألّف وبحث في الإمامة9.

و قال في هشام بن الحكم: إنّه من أصحاب الامام جعفر الصادق (عليه السلام) و إنّه من متكلمي الشيعة، بَحَثَ في الإمامة و فتح الباب في ذلک علي مصراعيه، و كتب في المذهب مؤلفات عديدة؛ منها: كتاب في الإمامة7.

واذن فإن الإمامة لدي الشيعة تحتل منزلة سامية و هي مقام شامخ رفيع، فيما تبقي الخلافة لديهم مسألة ثانوية و يبقي الخلفاء في رأيهم أفراداً شغلوا مناصب ليست من شإنّهم ولا هم أهل لها.

وقد ظلّ مصطلح الخليفة فاقداً لقيمته لديهم، فلم يتسنم أي من أئمة الشيعة باستثناء علي (عليه السلام) هذا المنصب و كان ذلک لمدّة قصيرة، فظلّوا محرومين منها طوال القرون المتعاقبة مع التأكيد علي ان خلافة الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) هي من حق الإمام و إنّه الفرد الوحيد المؤهل لقيادة الامّة10

_____

1. تاريخ اليعقوبي: ج2ص124.
2. فهرست ابن النديم: ص263.

3. المقالات و الفرق: ص25-فرق الشيعة: ص39.
4. حاضرالعالم الإسلامي: ج1ص188.
5. القران الكريم: سورة البينة (98)، الآية: 7، الصفحة: 598.
6. غاية المرام: ص327.
7. a. b. c. المصدر السابق.
8. الامامة و السياسة: ج1ص93.
9. فهرست ابن النديم طبعة مصرص 263.
10. من كتاب دراسة عامة في الامامة.